

تتمة مبحث (حزب الشيعة)

وأهم شاعر عبّر عن النظرية الشيعية هو الكُميت بن زيد الأسدي، الذي يعد أهم شاعر شيعي في العصر الأموي، وفي شعره ثورة شديدة على الأمويين، ودعوة صارخة لحربهم، وحديث متصل عن ظلمهم.

عاش الكُميت في فترة شهدت أشد الثورات التي اشتعلت ضد الدولة الأموية، في مدينة الكوفة التي كانت تعد مركز الشيعة الأكبر في العصر الأموي، ومركز المعارضة الأساسي لحكمهم، والكُميت شيعي معتدل على المذهب الزيدي، يؤمن في أن أولاد علي هم أحق الناس بالخلافة، وأن الأمويين قد أخذوا هذا الحق بالقوة، فمن الواجب على المسلمين أن يعملوا على إعادته لهم.

والهاشميات: مجموعة من القصائد والمقطوعات التي نظمها الكُميت، تتألف من ست قصائد وخمس مقطوعات.

وموضوع الهاشميات هو الدفاع عن حق بني هاشم في الخلافة ضد الأمويين. ويتفرع هذا الموضوع إلى ثلاثة موضوعات فرعية: مدح بني هاشم، وهجاء بني أمية، وموازنة بين عدل الأئمة وجور الخلفاء الأمويين.

وجو الهاشميات جو ديني في كثير من جوانبه، ومعانيها معان إسلامية تتصل بالمثل الأخلاقية التي يدعو إليها الإسلام من ناحية، وبالصفات التي ينكرها الإسلام من ناحية أخرى، فالمعاني التي يمدح بها بني هاشم هي تلك الصفات التي يجب أن يتحلى بها المسلم في مظهره ومخبره ليكون مسلماً حقاً، من العدل والإحسان والبر والصدق والتقوى والاستقامة والرحمة والعلم والهداية، والمعاني التي يهجو بها بني أمية هي تلك الصفات التي تباعد بين صاحبها وبين الإسلام، فهم عنده ضالون مضلون، أبعد الناس عن العدل والخير، وأقرب الناس إلى الظلم والعدوان. يقول في مدح بني هاشم:

بل هواي الذي أجن وأبدي	لبني هاشم فروع الأنام
القريبين من ندى والبعيدي	ن من الجور في عرى الأحكام
راجحي الوزن كاملي العدل في السيد	رة طيبين بالأمور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية الناس	س سواء ورعية الأنعام

أو سليمان بعدُ أو كهشام

لا كعبد الملوك أو كوليد

ويقول في هجاء بني أمية:

أزلوا بها أتباعهم ثم أوحلوا

لهم كلِّ عامٍ بدعةٌ يُحدثونها

ويحرم طلعُ النخلة المتهدِّل

تحلُّ دماء المسلمين لديهم

عليهم وهل إلا عليك المَعولُ؟

فيا ربَّ هل إلا بك النصر نبتغي

وتنتشر في هاشمياته العبارات القرآنية والاقتباس من الحديث، وقد ساعد الكمية على هذا سعة ثقافته الدينية وحفظه للقرآن وروايته للحديث وطبيعة الموضوع الذي أدار حوله هذه الهاشميات.

ومن بين الظواهر الفنية التي تلفت النظر في الهاشميات هذا التحول السلبي الذي أعطاه لمقدماتها الطللية والغزلية، فهو يبدأ قصائدها الطويلة بمقدمات سلبية في وصف الأطلال والغزل، فلا يقف فيها - كما كان يقف غيره من الشعراء - ليكي الديار ويصف الدمن والآثار، ولا يتحدث فيها عن حبيبة راحلة، وإنما مضى يصرح فيها بأن هذا كله لا يليق به، ولا يتفق مع الهدف السامي الذي يقصد إليه في هذه القصائد، وهو مدح آل البيت النبوي الكريم. ومعنى هذا أن الكمية كان يدور في عكس اتجاه الشعراء حين رفض في هذه المقدمات أن يقف على الديار، أو يكي على الأطلال، أو يتذكر غراماً قديماً، أو يتبع قلبه طعينة راحلة. ومن أشهر هذه المقدمات قوله:

ولا لعباً مني أدو الشيب يلعب؟

طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ

ولم يتطرَّني بنانٌ مخضَّبٌ

ولم يلهنِي دار ولا رسم منزلٍ

.....

وخير بني حواء والخير يُطلب

ولكنْ إلى أهل الفضائل والنهي

إلى الله فيما نالني أتقرَّب

إلى النفر البيض الذين بحبهم

بهم ولهم أَرْضِي مراراً وأغضب

بني هاشم رهط النبي فإنني

فهو يعطي هذه المقدمة التقليدية تحولاً سلبياً، ولعل هذا هو الذي لاحظته الفرزدق حين قال له بعد أن سمع منه هذه المقدمة: «قد طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك، فأما نحن فما نطرب ولا طرب مَنْ كان قبلنا إلا إلى ما تركت أنتَ الطرب

إليه».

ومن الظواهر الفنية في الهاشميات اعتماد الكمية على الجدل والحجاج والاستدلال العقلي الذي تهيأ له من ثقافته العقلية لأنه على صلة وثيقة بفكر «المعتزلة» عن طريق علاقته بزيد بن علي، الذي كان حجة في مقولة المعتزلة. فلم يعد الشعر عنده يعبر عن الشعور فحسب، بل أصبح يعبر عن الفكر، وأصبح يُشفع بكل ما وصل إليه العقل العربي في هذا العصر من قدرة على الجدل والإقناع. وأهم أبياته التي تعكس منهجه في الجدل والبرهنة هذه الأبيات:

بخاتمكم غصباً تجوز أمورهم فلم أر غصباً مثله يُتَغَصَّبُ
وجدنا لكم في آل حاميم آية تأولها منا تقيٍّ ومعرب

....

وقالوا: ورثناها أبانا وأمنّا وما ورّثتهم ذاك أم ولا أب
يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب
فإن هي لم تصلح لحي سواهم فإن ذوي القربى أحق وأقرب
إنه يجادل بني أمية في حق بني هاشم فيقول لهم: إنكم تبنون حق استثنائكم بالخلافة على مبدأ الإرث، إذن فذوو القربى من بني هاشم أحق بوراثته الرسول منكم. ويقرر هذا الحق عن طريق آي الذكر الحكيم في سورتي حاميم (آية الشورى) وغيرها، من مثل قوله تعالى:

﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾، وقوله عز وجل ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ الأحزاب. وفي الإسراء ﴿وأت ذا القربى حقه﴾ على أنه إن لم يورث لكان معنى ذلك أن الخلافة حق للجميع ولطابتها القبائل المختلفة.

فبالخلافة ميراث بدليل اختصاص قريش بها. وما دامت ميراثاً فلنرجعها إلى أهلها فهي تركة الرسول الكريم وهم أقرباؤه.

ومن شعراء الشيعة من يجمع بين الأئمة جميعاً ويقدم لهم صورة عامة لا فرق فيها بينهم فهم يحرصون على الطاعات ينفقون ليلهم ونهارهم في عبادة متصلة وتقرب دائم إلى الله، يكابدون الصوم ويقطعون الليل سهارى بين صلاة وابتهاال

وترتيل لكلام ذي الجلال لا هم لهم إلا الزهد. يقول أيمن بن خريم:
نهاركم مكابدة وصوم
وليكنم صلاة واقتراء
وليكنم بالقران وبالتزكي
فأسرع فيكم ذاك البلاء
بكي نجد غداة غدٍ عليكم
ومكة والمدينة والجواء
وحق لكل أرض فارقوها
عليكم - لا أبالكُم - البكاء
أجعلكم وأقواماً سواء
وبينكم وبينهم الهواء

يعد شعر الشيعة أدباً جديداً في معانيه وموضوعاته، فموضوعه سياسي مذهبي، ومعانيه مستمدة من القرآن الكريم. ولعل هذا التجديد هو الذي لفت نظر عبد الملك بن مروان - وكان بصيراً بالشعر - فقال لشعرائه المداحين: يا معشر الشعراء تشبهوننا بالأسد والأسد أبخر، وبالبحر والبحر أجاج، وبالجبل والجبل أوعر، ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم:

نهاركم مكابدة وصوم..... الأبيات

وهذه لمحة ذكية من عبد الملك، ففضلاً عن جدة المدح بهذه المعاني فإنها أكثر لياقة لمدح الخلفاء، الذي كان يتوق إليه بنو أمية.